

المطرب من أشعار أهل المغرب

لابن دحية

ذى النسيين أبي الخطاب عمر بن حسن

المتوفى سنة ٩٣٣ هـ

بتحقيق

الدكتور / حامد عبد المجيد

الاستاذ / إبراهيم الإياري

الدكتور / أحمد أحمد بدوي

راجعته

الدكتور / طه حسين

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٧

الإهداء

هذا كتاب يعني أمتين : العرب والأسبان ، إذ هو يعرض حِقبة مشتركة من تاريخهما .

وكم وددنا لو نقلناه إلى اللغة الأسبانية ، ولكن الأسباب لم تُسعف ، فلا أقلّ من أن نُهديه إلى الأمة الأسبانية عن الأمة العربية ، توثيقاً لصللة قديمة ، وتمكيناً لثقافة نحن وإياهم فيها قسيان .

إبراهيم الأبياري

تعريف بالمؤلف والكتاب

بقلم

ابراهيم الابيارى

الى ذلك التراث الخالد الذى نرجوله بعنا وشيكا يلم شعته ، ويرم مُرثته ،
ونحفظ فيه للابناء موروث الآباء ، يفطنهم ويعظهم ويرقيهم : نهدي جهداً
ربما ردة النفوس الى طمأنينة باننا مُدركون .

تمهيد :

كان ذلك منذ أعوام تَزرة خلت حين سألتى صديقاى : حامد وأحمد، أن نتضام
على تحقيق « المطرب » . وكنت بين إيمان بنفع الكتاب حافز ، ورأى بالتداع
الخطيات الفردة صارف . فما أكثر ما يستهدف المعنى بها . ولكن سرعان ما غلب
الإيمانُ الرأى ، ووجدنا فى مشاركة المؤلف غيره ، أخذنا وإعطاء ، ما يعوضنا هوناً ما
عما نفقده للأصل من أشباه .

وصرف الدهر فإذا أنا بمنأى عن الزميلين بعيد ، وإذا الشقة الفاصلة ، دونها
تبادلُ العون فى يسر وخفة . وتمتد الأيام والكتاب حبيس طبع ، على مُمضة منّا
ومكروهة .

ثم يأذن الله فيتصل ما أنقطع ، ويكتب « للمطرب » أن يظهر بعدما تغيبناه .
وإنها لمعذرة يستوحىها قومٌ من أمر الكتاب على موصولة . فما أوجب العذر
علينا لهم ، وما أحرهم أن يتبينوه .

ابن دحية

نسبه :

هو ذو النسيين - فيما يزعم - أمه - كما يقول ابن خلكان - أمةُ الرحمن بنت أبي عبد الله بن أبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .
وأما هو ، فعُمر بن الحسن بن علي بن محمد بن الجُمَيْل^(١) بن فَرَح^(٢) بن خَلْف ابن قُومس^(٣) بن مَزْلال^(٤) بن مَلال^(٥) بن بَدْر بن أحمد بن دَحِيَّة^(٦) بن خَلِيفَة ابن قَرَوَة الكَلْبِي الأندلسي البَلَنْسِي الداني . وكان يكنى أبا الخطاب ، وأبا الفضل ، وأبا حفص ، وأبا علي .

وهكذا يجعل نسبه إلى «دحية» الصحابي المعروف ، شبيه جبريل عليه السلام ، وكان ينزل في صورته . كما يرفع نسبه من أمه إلى الحسين عليه السلام ، فوالدة «الجُمَيْل» هي ابنة الشريف أبي البسام العلوي الحسني ، كما ترى .

وإلى هذا يشير ابن دحية في عينيته التي مدح بها السلطان الكامل :

بقيت لعبد جدّه دحية الذي يُشابه جبريل له ويضارع
وجدته الزهراء بنت محمد عليه السلام الدائم المتتابع

- (١) بضم الجيم وفتح الميم وتشديد اليا ، تصغير «جل» .
- (٢) بفتح القاء وسكون الراء .
- (٣) بضم القاف وفتحها وسكون الواو وكسر الميم .
- (٤) بفتح الميم وسكون الزاي .
- (٥) بفتح الميم وتشديد اللام ألف .
- (٦) بفتح الدال المهملة وكسرها وسكون الخاء .

(ز)

والمؤرخون يكادون يُجمعون على بطلان نسبته إلى « دحية » ، فالعماد الحنبلي في «شذرات الذهب» . حين ترجم له يقول : «ودخل دمشق فمال إليه الوزير أبو بكر بن شكر ، فسأله أن يجمع بينه وبين الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي . فاجتمعا وتناظرا وجرى بينهما البحث ، فقال له الكندي : أخطأت ! فسفه عليه . فقال الكندي : أنت تكذب في نسبك إلى دحية الكلابي ، ودحية بإجماع المحدثين ما أعقب ، وقد قال فيك ابن عنين : (١) .

دحية لم يعقب فكم تنمى إليه باليهتان والإفك
ما صحَّ عند الناس فيه سوى أنك من كآب بلا شك

والذهبي في «تذكرة الحفاظ» حين ينقل هذه النسبة ، يعقب عليها بما يفيد تشكيكه فيها ، فيقول : « يذكر أنه من ولد دحية الكلابي ، وأنه سبط أبي البسام » (٢) .

ولأبعد قول ابن الأبار عن هذا .

ويقول ابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان» بعد ما ساق نسبه : «فهذا نسب

باطل بوجوه :

أحدها : أن دحية لم يعقب .

الثاني : أن على هؤلاء لوائح البربرية .

وثالثها : بتقدير وجود ذلك ، قد سقط منه آباء ، فلا يمكن أن يكون بينه وبينه

عشرة أنفس .

(١) هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الأنصاري المسمى ، ولد سنة ٥٤٩ هـ . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ

وله ديوان مطبوع بتحقيق خليل مردم بك .

(٢) الذي في التذكرة : «أبي البسام» .

ويعود الذهبي في « سير أعلام النبلاء » بعد أن ذكر هذا النسب السابق بجمد فيقول : « هكذا ساق نسبه ، وما أبعده من الصحة والاتصال ، وكان يكتب لنفسه : ذو النسبتين ، بين دحية والحسين » .

ويقول : « ونسبه شيء لاحقيقة له ، قرأت بخط ابن مسدى : كان أبوه تاجراً يُعرف بالكابي ، بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدائية » .

ويقول ابن مسدى أيضا : « رأيت الحدائق من علماء المنزب لا يزيدون على ذكر جدهم « فرح » إلا التعريف ببني الجميل . وقد كان أخوه أبو عمرو عثمان يلقب بالجميل بن الجميل » .

ويقول ابن حجر : « والجميل : تصغير للجميل ، بالعبارة المغربية » .

ويقول ابن عبد الملك في الصلة : « وكان يسمى نفسه ذا النسيين ، وهو مغربي من أهل سبتة . وأظنه كان قاضيها » .

وتم شيء يتصل بالحديث عن نسبه ، وهو الحديث عن توثيقه في روايته . فكلاهما يلتقي ضوءاً على الآخر ويعضده . ومن يجوز عليه التخليط في واحدة يزن بها ، حرى بالثمة غير مبرأ منها مع الثانية .

نسمع لسبط ابن الجوزي يقول عنه : « كان في المحدثين مثل ابن عنين في الشعراء ، يقع في أئمة الدين ، ويزيد في كلامه ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه . وكان الكامل مقبلاً عليه ، فلما أنكشف حاله أعرض عنه ، وأخذ منه دار الحديث وأهانه » .

ويقول ابن واصل : « وكان أبو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث متهماً بالمجازفة في النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة ،

فأمره أن يعلّق شيئاً على أحاديث الشّهاب ، فعلق كتاباً تكلم فيه على أحاديثه وإسناده ، فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد حين : قد ضاع منّي ، فعلق لي مثله . ففعل ، بجاء في الثاني بمناقضة الأول . فعلم السلطان صحّة ما نقل عنه . وعزّله من دار الحديث ، ثم ولي أخاه أبا عمرو عثمان .

وينقل الدّبلجى أحمد بن عليّ صاحب « الفلاكة والمفلوكون » : « قال ابن نقطة : « كان يدعى أشياء لا حقيقة لها . ذكر لي أبو القاسم بن عبد السلام ، وهو ثقة ، قال : نزل عندنا ابن دحية ، فكان يقول : أنا أحفظ صحيح مسلم والترمذى ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات ، فجعلتها في جزء ، ثم عرضت عليه حديثاً من الترمذى . فقال : ليس بصحيح . وآخر فقال : لا أعرفه . ولم يعرف منها شيئاً . فأفسد نفسه بذلك . »

ويروى ابن خلّكان ، وهو يتحدث عن الأسعد بن ممتّاني : « وكان الحافظ أبو الخطاب بن دحية ، المعروف بذي النسيين رحمه الله تعالى ، عند وصوله إلى مدينة إربل ، ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، صنّف له كتاباً سماه : التنوير في مدح السراج المنير . وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة في مدح مظفر الدين ، أولها :

لولا الوشاة وهم أعداؤنا ما وهبوا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه . وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان سنة ست وعشرين وستمائة ، والقصيدة فيه ، ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد بن ممتّاني المذكور ، فقلت : لعل الناقل

عَلَط . ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكاملها ، مدح بها السلطان الكامل .
فقوى الظن . ثم إنى رأيت أبا البركات بن المستوفى قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ
إربيل عند ذكر ابن دحية ، وقال : سألته عن معنى قوله فيها :

يَمْدِيهِ مِنْ عَطَا جُمَا دَى كَفِّهِ الْمُحْرَمِ

فما أحرار جوابا ، فقلت : لعله مثل قول بعضهم :

تَسْمَى بِأَسْمَاءِ الشُّهُورِ فَكُفَّهُ جُمَادَى وَمَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمُحْرَمِ

قال : فتبسّم وقال : هذا أردت . فلما وقفت على هذا ترجّح عندي أن
القصيدة للأسعد المذكور ، فإنها لو كانت لأبي الخطاب لما توقف في الجواب .

ويقول الحافظ الضياء : « لم يُعجبني حاله ، كان كثير الوقيعة في الأئمة » ،
ثم قال : « أخبرني إبراهيم السنهورى أن مشايخ المغرب كتبوا له جرحه وتضعيفه » .

ويقول ابن النجار : « رأيت الناس مجتمعين على كذبه وضعفه وأدعائه سماع
ما لم يسمعه ، ولقاء من لم يلقه ، وكانت أمانة ذلك عليه لائحة . وحدثني بعض
المصريين ، قال : قال لى الحافظ أبو الحسن بن المفضل ، وكان من أئمة الدين ،
قال : كُتِّبَ بحضرة السلطان فى مجلس عام وهناك ابن دحية ، فسألنى السلطان عن
حديث ، فذكرته له . فقال لى : من رواه ؟ فلم يحضرنى إسناده فى الحال .
فأنفصلنا ، فأجتمع بى ابن دحية فى الطريق ، فقال لى : ما ضرك لما سألك
السلطان عن إسناد ذاك الحديث ، لم لم تذكر له أى إسناد شئت ، فإن من
حضر مجلسه لا يعلمون هل هو صحيح أم لا » .

(ك)

ويعضى ابن النجار ، فيقول : « وكان صديقنا إبراهيم السهري دخل إلى الأندلس . فذكر لمشايجها حال ابن دحية وما يدعيه ، فأنكروا ذلك وأبطلوا لقاءه لهم ، وأنه إنما أشغل بالطلب أخيراً ، وأن نسبه ليس بصحيح » .

وكتب السهري بذلك محضراً ، وأخذ خطوطهم فيه . فعلم ابن دحية بذلك ، فشكاه للسلطان ، فأمر بالقبض عليه ، فغضب وجرس على حمار ، وأخرج من القاهرة . وأخذ ابن دحية المحضر ففرقه » .

ويحدث أبو العلاء الأصبهاني على بن الحسن ، وهو ما هو جلاله ونبلا ، يقول : « لما قدم ابن دحية علينا أصبهان ، نزل على أبي في « الخانقاه » فكان يكرمه ويُبجله ، فدخل على والدي يوماً ومعه سجادة ، فقبلها ووضعها بين يديه ، وقال : صليت على هذه السجادة كذا وكذا ألف ركعة وختمت القرآن في جوف الكعبة مرّات . قال : فأخذها والدي وقبلها ، ووضعها على رأسه وقبلها منه مبهجاً بها . فلما كان آخر النهار حضر عندنا رجل من أهل أصبهان ، فتحدثت عندنا ، إلى أن أنفق أن قال : كان الفقيه المغربي الذي عندكم اليوم في السوق اشترى سجادة حسنة بكذا وكذا . فأمر والدي بإحضار السجادة . فقال الرجل : إى والله ! هذه فسكت والدي ، وسقط ابن دحية من عنده » .

ويقول ابن كثير : « قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث قصر صلاة المغرب . وكنْتُ أودّ أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله . وقد أجمع العلماء - كما ذكره ابن المنذر وغيره - على أن صلاة المغرب لا تقصر .

واتفق أنه وصل في جمادى الأولى سنة ٦١٦ هـ إلى غزة ، فخرج كل من
في غزة بالأسلحة والعصى والحجارة إلى الموضع الذي هو فيه ، وضربوه ضرباً
شديداً بعد أن انهزم من كان معه .

وكذلك نجد ابن عبد الملك في الصلة ، وما هو بالمشركي ، يقول في ترجمة
أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حريث : « نسبة أبو الخطاب
ابن الجليل في معجم شيوخه الذي جمعه أبو الخطاب ، فزاد بعد حديث ، فقال :
ابن عاصم بن مضاء بن مهند بن عمير اللخمي . فوافقه عليه إلا في ذكر مهند
ابن عمير ، فإنه أنكرهما . فقال له أبو الخطاب : يا سيدي ، هما جدك ذكرهما
فلان . فتوقف الشيخ » .

ويقول ابن عبد الملك : « وهذا السند منقطع لبعده عصر « أحمد » من عصر
« حريث » . فقد ذكر بعض من صنف للناصر بن المطرف عبد الرحمن بن محمد
صاحب الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة ؛ أخبار المراديين ومن دخل معهم
الأندلس ، جماعة من الخميين ، منهم . النجاشي بن عاصم بن حريث بن عاصم
ابن مضاء بن مهند . فلو صح هذا لكان النجاشي عم جد صاحب الترجمة . وهو
مقطوع ببطلانه في العادة . ففعل ذلك من تركيبات أبي الخطاب » .

هذا هو أبو الخطاب على لسان من تنقصوه ، فكذبوه في نسبه وضعفوه في نقله ،
بل وعابوه بالتدليس ورموه بالكذب ، وساقوا كما رأيت قصصاً على لسان موثقين ،
عند الله علمها . وكأنهم كلهم من المشرق ، إلا القليل .

غير أننا نرى ابن جرير الطبري يذكر في حوادث سنة ست وعشرين ومائة ،
قال : « ولما استوثق ليزيد ابن الوليد على الطاعة أهل الشام ، ندب - فيما قيل
لولاية العراق - عبد العزيز بن هارون بن عبد الله بن دحية بن خليفة الكلابي .
فقال له عبد العزيز : لو كان معي جند لقبلت . فتركه وولاه منصور بن جمهور » .

وفيما يرويه الطبري - أن صح - مقنع لمن ينزهه ، ويرد عليه نسبه إلى دحية .
فدحية - فيما يرويه الطبري - قد أعقب .

هذا عن نسبه ، له فيه وعليه ، وكذا الحديث عن روايته ، فلم يعد ابن دحية
من أئني عليه ، وإن لم يبلغ ذلك مبلغ التبرئة مما زُنَّ به .

فابن حجر يقول : « ورأى المغاربة في أبي الخطاب غير رأى أهل ديار مصر » .

ويمضي فينقل عن ابن عساكر في رجال مالقة ، في ترجمة ابن دحية « ...
إلا أنه كان يتهم في الرواية ، لأنه كان مكثرا » .

ثم يعقب على هذا القول فيقول : « فهذا مغربي وافق المصريين » .

ويقول المقرئ في النسخ : « كان من كبار المحدّثين . ومن الحفّاظ الثقات
الأثبات المحصّلين » .

ويقول الغبريني في « عنوان الدراية » قد رأيت له تصنيفا في رجال الحديث
لا بأس به ، وآرتحل الى المشرق في دولة بني أيوب فرفعوا شأنه وقربوا له مكانه ،
وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجلسا أقرؤا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من
أولى الضبط والإتقان والفهم . وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ، فأعاد
المتون المحوّلة ، وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من
متونها الأصلية » .

ويقول أبو جعفر بن الزبير في صلة الصلة : وكان مُعْتَنِيًا بِالْعِلْمِ مَشَارِكًا
فِي فَنُونِ مَنْهُ ، مَجْتَهِدًا مُعْتَنِيًا بِالْأَخْذِ عَنِ الشُّيُوخِ ، ذَا كَرًا لِلتَّارِيخِ وَالْأَسَانِيدِ وَرِجَالِ
الْحَدِيثِ وَالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ »

ثم يقول : « وعرفني بحاله وحال أخيه ابن عمرو عثمان ، الشيخان أبو الحسن الغافقي وأبو الخطاب بن خليل ، وكانا قد صحباهما طويلا وخبراهما جملة وتفصيلا ، الا أنهما ذكراهما بانحراف في الخلق وتقلب لم يشنهما غيره ، ووصفاهما مع ذلك بالثقة والعدالة والسداد والأعتناء التام » .

ويقول ابن خلكان : وكان أبو الخطاب من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به . . . وشغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية . ولقى بها علماءها ومشايخها . ثم رحل منها الى بلاد الأندلس ، ودخل مرآكش وأجمع بفضلائها ، ثم ارتحل الى إفريقية ومنها الى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد وسمع بواسط . ودخل الى عراق العجم وخراسان وماوالاها وما زاندران ، كل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئمة والأخذ عنهم ، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه » .

ويقول ابن الأبار : « وكان بصيرا بالحديث معنيا بتقييده مكبا على سماعه » .

وقول القائلين فيه كما ترى ، فريق مشرق منهم : الذهبي ، وابن كثير ، وابن تغري بردي ، وابن حجر ، وابن واصل ، يميلون لذكر مثالبه ، ولا يذكرون له الخير إلا والنقيصة في إثره ، ومعهم نفر من المغاربة والأندلسيين ، كابن عساكر ، وابن عبد الملك .

وفريق أندلسي مغربي ، وفيهم : المقرئ ، وابن الأبار ، وابن الزبير ، والغبريني ، يرفعون قدره ، وينوهون بشأنه ، ويلتمسون لنقد ناقدية عذره فيه ، فيقول المقرئ : « وإن الناس فيه معتقد ومنتقد . وهكذا جرت العادة في حق القريب المنتسب للعلم :

* وعند الله يجتمع الخصوم *

ولعلك تعرف أن أبا الخطاب كان ظاهرياً ، ذكرها له المقرئ فقال : « وهو يعرف به » : « بالظاهري المذهب » .

وإن من المعتنين بآبن دحية من يعزو هذا القَدْح وذاك المدح لذاك . وتكاد تكون علتها غير تلك . فظاهريّة آبن دحية ، إن ثبتت على لسان المقرئ ، فقد وصفه ابن الزبير بغيرها ، فقال : « وكان سنياً بجانبنا لأهل البدع » .

فليس الأمر أمر مذهب إذن ، ولكنه شيء أعدل من هذا وأصح ، فعلم رواية الحديث مشرقاً المنبت ، وبالشرق أعلامه وشيوخه ، والتعديل والتجريح صناعتهم ، عنوا بها وعنوا أنفسهم . لم يعلم المغرب ولا الأندلس عليهم إلا بأخرة ، فكان فيه لاحقاً ، وعنهم أخذوا .

والذين جرحوا آبن دحية ، وهم من هذه المدرسة مدرسة الحديث ، كالذهبي وابن حجر ، عنهم نقل المؤرخون . وأما الذين عدلوه ، فهم بين مؤرخ كالمقرئ ليس هذا فنه ، أو محدث مؤرخ كآبن الزبير وآبن الأبار ، لم يبلغ مبلغ المشاركة في ذلك استقصاءً وعموماً .

ثم لا تنس أن ابن دحية ، إن كان بالغرب منبته ، ففي الشرق أزدهاره . ومع الثانية الرأي له أو عليه .

وابن دحية كان على شيء مما وصفه به الثبوه ، لا شك في ذلك ، ولم يفقد شيئاً من الخير الذي جاء على لسان مطريه .

ولم يكن ثانيهما تعصباً له ، كما لم يكن أولهما تعصباً عليه ، وإنما كان للذي ذهبوا إليه من هذا التقصي في العلم والتحري فيه .

وما أكثر ما اتق المحدثون من رجال النقد ، وما أكثر ما وُضع من الكتب في ذلك ، وما أقل المبرأ منهم الموثق في غير مأخذ ولا هنة . ولم يكن ابن دحية

(ع)

غير واحد من هؤلاء . ولكنه أراد أن يبرز قطر قطرا ، لا فرداً فرداً ، فحمل عبئا كلفه شيئا من الشطط لم يقدر له قدره ؛ فترك خصومه يعدون عليه الكثير .

مولده ووفاته :

يذهب المقرئ إلى أن مولد « ابن دحية » كان في ذى القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ويقول ابن خلكان : « وكانت ولادته في مستهل ذى القعدة سنة أربع - أو ثمان - وأربعين وخمسمائة » .

ويقول : « وأخبرني بعض أصحابنا الموثوق بقولهم : أنه سأل ولده عن مولد أبيه ، فقال : في ذى القعدة من سنة ثمان وأربعين » .

ثم قال : « وأخبرني ابن أخيه قال : سمعت عمي أبا الخطاب غير مرة يقول : ولدت في مستهل ذى القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة » .

هذا مبلغ ما قيل عن مولده . أما وفاته فكانت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . وأن ذلك كان في يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول ، عن سبع وثمانين سنة ، كما ذكر العباد الحنبلي .

على ذلك إجماع المؤرخين ، غير ابن الزبير ، فإنه لم يعرفها يقينا ، فقال : « وتوفي قبل سنة ٦٤٠ » .

وكانت القاهرة مثواه ، وفي سفح المقطم مقره الأخير .

نشأته وحياته :

لا نملكها كلمة صريحة تقفنا على أسم البلد الذي تلقى « ابن دحية » وليداً ، ووضه صغيراً حتى شب وأيفع .

(ف)

فابن الأبار يقول عنه : « الداني الأصل السبتي » وهي عبارة الذهبي أيضا .
والعماد الحنبلي يصفه بقوله : « الداني ثم السبتي » .

ونعود إلى أبي جعفر بن الزبير فنقرأ له فيه : « من أهل سبته » .
ويوثقه ابن حجر العسقلاني ، بقوله : « وهو مغربي من أهل سبته ، وأظنه
كان قاضيا » .

وذكره ابن تغري بردي مرتين ، قال في أولاهما : « أبو الخطاب بن دحية
المغربي » . وذكره في ثانيتهما بلقب « البلنسي » .

وبهذا اللقب الأخير « البلنسي » ناداه العمري في « مسالك الأبصار » والذهبي
في « سير النبلاء » وابن خلكان في « وفيات الأعيان » . ونقله المقرئ في « النسخ »
عن هذا الأخير ، فقال : « وهو بلنسي ، كما قال ابن خلكان وغيره » .

وعندي أن صلته بدانية ، فتكاد تكون من قبل أبيه ، وقد تبعد ، فأبوه :
الحسن بن علي ، كان تاجرا بها .

ويذكر ابن حجر أن كليته جاءت من « كلب » بين الفاء والباء ، موضع من
ساحل دانية .

وينقل الذهبي عن ابن مسدي : « كان والد أبي الخطاب تاجرا يعرف بالكلبي ،
بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدانية ، وكان أبو الخطاب يلقب ، الكافي ،
والكلبي معا ، إشارة إلى الموضع وإلى النسب » .

ونص ابن الأبار والذهبي يميلان ما ذهبنا إليه من ظن . وما قول الحنبلي
عنهما ببعيد .

ويديننا من هذا الظن ، ويكاد يُحيله يقينا ، قول ابن الزبير وابن حجر ، ثم ما ذكره
أبن تغري بردي .

وتمَّ دليل يجمله « المطرب » نفسه ، فأبن دحية صاحبه ، يذكر عن نفسه أنه لقي بالمغرب بمرآكش منه أبا بكر العبدري مجد بن عبد الله سنة خمس وستين وثمانمائة^(١) . ومن قبل تلك السنة لقي بمرآكش أيضا سنة أربع وستين وثمانمائة أبا عبد الله بن حيوس مجد بن حسين^(٢) .

أى حين كان « أبو الخطاب ، ابن عشر وثمانية ، أو أعلى من ذلك بقليل ، ولما يَتم العشرين ، فأخذ عن هذا وذاك وسمع منهما .

ثم عرفناه في « دانية » قاضياً ، ولى قضاءها مرتين ، ثم فصل عنها إلى غير عودة . وما نظنه ولى قضاء « دانية » في سن قبل تلك التى لقيناه بها في المغرب .

ولم يذكر لنا هو أنه سمع بدانية في سن مبكرة ، كما سمع بالمغرب ، الذى كان وجوده به سابقا فيما يبدو ، وما نحب أن نقطع .

وأما عن نسبته إلى « بلنسية » فسوف نسكت عنها كما سكت ابن خلكان ، وهو صاحبها على الأرجح ، فما بين أيدينا عنها مزيد . ولعل للمامه بها أربى على المامه بغيرها ، أو كان له بها واصلة تخفى .

نحب أن نزيد أن أبا الخطاب لم يترك المغرب — فيما نظن — إلى الأندلس قبل أن يشهد جنازة شيخه « ابن شقريق » بسنة سنة ٥٧١ هـ ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنا رأيناه بعد ذلك يستمع إلى ابن خير بإشبيلية سنة ٥٧٢ هـ ، ولم نزله ذكراً قبل هذا في الأندلس ، فيما ذكره هو لنا أو ذكره غيره عنه .

(١) أنظر صفحة ١٩٨

(٢) « » ٤٠٠

(ق)

ولا ندري متى كانت ولايته لقضاء دانية، وإن كنا نرى أنها لم تكن قبل هذا،
وليه مرة أولى، وكان هذا أول ماولى، كما يقول صاحب سير النبلاء، ثم
وليه مرة ثانية، كانت بينهما فترة يسيرة، ليس فى ذلك شك، ثم صرف عنه.

يذكر ذلك ابن حجر، فيقول: «وقد كان ولى قضاء دانية، فأتى بزامر
فأمر بتقب شدقه وتشويه حلقة. وأخذ مملوكاً له بقبه، واستأصل أنثيه. فرُفع
إلى المنصور ملك الوقت، وجاءه النذير فأخفى وخرج خائفاً يترقب، وخرج
نحو إفريقية وشرق ثم لم يعد.»

ومن هنا تبدأ رحلته عن الأندلس، بعد ما طوف بها ما طرّف، يستمع إلى شيوخها
ويروى عنهم.

يقول صاحب سير النبلاء: «فرحل وأتى بتلمسان أبا الحسين بن أبي حيون،
فحمل عنه وهو فى تونس سنة ٥٩٥هـ، ثم حج وكتب بالمشرق بأصبهان ونيسابور،
وعاد إلى مصر فاستأدبه الملك العادل لابنه الكامل، ولى عهده، وأسكنه القاهرة.»

ويقول الذهبي «فرحل عنها، وحمل بتلمسان عن قاضيها ابن أبي حيون. وحدث
بتونس فى سنة خمس وتسعين. وحج وكتب بالمشرق وأصبهان وبالعراق ونيسابور،
وأدرك أبا جعفر الهمداني، وأبا الفتح الفراوى، والحافظ أبا الفرج بن الجوزى،
وعاد إلى مصر.»

ويقول ابن خلكان: «ثم رحل عنها - أى عن الأندلس - إلى بر العدو.
ودخل مراکش، واجتمع بفضلائها، ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار
المصرية - فى زورته الأولى - ثم إلى الشام والشرق والعراق، وسمع ببغداد
من بعض أصحاب ابن الحصين، وسمع بواسطة من أبى الفتح محمد بن أحمد

ابن الميداني ، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران ... وسمع بأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني، وبنيسابور من منصور بن عبد المنعم الفراوي ، وقدم مدينة إربل في سنة أربع وثمانئة، «وهو متوجه إلى خراسان ، فرأى صاحبها الملك مظفر بن زين الدين مولعاً بعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عظيم الاحتفال به ، فعمل له كتاباً سماه : التنوير في مولد السراج المنير . وقرأه عليه بنفسه . وسمعناه علي الملك المعظم في ستة مجالس ، في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وثمانئة » .

هذا هو تطواف أبي الخطاب في البلاد بعد هجرته عن الأندلس، وكانت إربل آخر المزار ، ألقى بعدها بمصر عصا التسيار .

فهو قد جاز مصر إلى الشرق ، ومالبت أن عاد إليها ثانية ليقضى فيها ما بقي من عمره . وقد لا يكون الأمر أمر استقرار ، في مصر من هذه الأمصار . بل كانت غدوات وروحان يطول معها المقام أو يقصر . ومصر كانت المآب والمنزل .

ويذكر ابن خلكان أن «العادل» استأدبه لابنه الكامل ، والكامل لم تعرفه الحياة إلا عام ٥٧٦ . وعندها كان أبو الخطاب بين ربوع الأندلس ، أو لعله كان عندها في دست قضاء دانية . وهو حين حلّ تونس راحلاً عن الأندلس حلها في عام ٥٩٥ ، كما حدثنا الذهبي في سير النبلاء ، فرحلته إلى مصر كانت بعد عامه ذلك .

وفي هذا العام نفسه استدعى الملك «العادل» ولده «الكامل» إلى مصر ، فخرج من دمشق في الثالث والعشرين من شعبان ، وودّعه أخوه الملك المعظم عيسى إلى رأس الماء - موضع بالقرب من حوران - وكان العماد الكاتب في صحبته ، فأنشد:

دعتكِ مصر إلى سلطانها فأجب دعاءها بنهوض غير مكذوب

(ش)

ووصل «الكامل» مصر في عاشر شهر رمضان ، و تلقاه أبوه «العاقل» من العباسية وأنزله في دار الوزارة . وكان قد زوجه بنت أخيه صلاح الدين ، فدخل بها . وكان مولد «الكامل» سنة ٥٧٣ - وقيل خمس وسبعين ، كما قيل : سنت وسبعين - فسنه حين استدعاه أبوه كانت نحواً من اثنين وعشرين عاماً ، أو تسعة عشر عاماً . وكان استقلاله بمصر بعد وفاة أبيه «العاقل» بعد أن تولاه في حياة أبيه ، تلك الأعوام التي خلت من مجيئه إليها سنة ٥٩٥ إلى عام وفاة أبيه العادل ، أي سنة ٦١٦ هـ .

وإخال بين هذه وتلك كان اللقاء الأول بين ابن دحية والكامل ، حين استأديه أبوه له ، ثم كان اللقاء الثاني حين عهد إليه الكامل برياسة المدرسة الكاملية ، دار الحديث الكاملية . وهي التي أنشأها الملك الكامل في سنة ٦٢٢ ، وكانت ثاني مدرسة عملت للحديث - وكانت أول دار للحديث على وجه الأرض لنور الدين محمود بن زكي بدمشق - وقد وقف الكامل مدرسته الكاملية على المشتغلين بالحديث النبوي ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ^(١) .

ويذهب السيوطي في حسن المحاضرة ، إلى أن الكامل حين بنى المدرسة سنة ٦٢١ هـ جعل شيخها أبا الخطاب .

وأحب أن أعود إلى ابن دحية فأحدثك عن سماعه حديثاً جامعاً أو قريباً من ذلك ، لتعرف كيف آثره «الكامل» على غيره ، وخصه بهذا المنصب دون سواه من معاصريه وأقرانه .

(١) مكان هذه المدرسة بين القصرين من القاهرة ، ولا تزال موجودة إلى اليوم بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برفوق ، وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل . وقد جدد فيها الأمير حسن كخدا سنة ١١٦٦ هـ . (وانظر الخطط للقرنبي ٢ : ٣٧٥) .

(ت)

يقول ابن الأبار : « سمع بالأندلس أبا عبد الله بن المجاهد ، وأبا القاسم بن بشكوال ، وأبا بكر بن الجحد ، وأبا بكر بن خير . وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا القاسم بن حبيش ، وأبا محمد بن عبيدان ، وأبا العباس بن مضاء ، وأبا محمد بن بونة ، وجماعة .

وقد حدث بتونس بصحيح مسلم عن طائفة من هؤلاء وعن آخرين ، منهم : أبو عبد الله بن بشكوال ، وأبو الوليد بن المناصف ، والقاسم بن دحمان ، وصالح بن عبد الملك ، وأبو إسحاق بن قرقول ، وأبو العباس بن سيده ، وأبو عبد الله بن عميره ، وأبو خالد بن رفاعة ، وأبو القاسم بن رشد الوراق ، وأبو عبد الله القباعي ، وأبو بكر بن مغاور ، وأبو العباس البلنسى .

ويقول : « وكان بصيرا بالحديث معنيا بتقييده ، مجا على سماعه » .

ويقول المقرئ : « كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، استوطن بجاية وروى بها وأسمع » .

وينقل ابن حجر فيما ينقل عنه : « وكان حافظا ما هرا في علم الحديث حسن الكلام فيه فصيح العبارة » .

وينقل أيضا : « وكان له معرفة حسنة بالنسبة بالحديث والفقه على مذهب مالك » .

ويقول ابن الزبير : « وكان مجتهدا ومثبنا بالأخذ عن الشيوخ ذا كرا للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث والجرح والتعديل » .

(ث)

ويقول ابن خلكان : « وكان أبو الخطاب متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به . واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ولقى علماءها ومشايخها » .

وقد سقنا قبلُ شيئاً من حديث ابن خلكان عن سماع أبي الخطاب بالمشرق .

ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ : « وسمع بمصر من البوصيري وطبقته ، وسمع مسند الإمام أحمد بواسطة من الميداني ، وسمع معجم الطبراني كله من الصيدلاني ، وحدث في سنة ستائة بالموطأ ، وزعم - ولم يدخل في الأذن دعواه - أنه قرأ صحيح مسلم من حفظه على بعض شيوخه » .

ويقول ابن شعبة : « كان متقنا الحديث » .

ويقول الغبريني في عنوان الدراية : « رأيت له تصنيفاً في رجال الحديث لا بأس به ، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، فرفعوا شأنه وقربوا مكانه ، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلساً ، أقرروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والإتقان والتفهم . وذكروا أحاديثاً بأسانيد حوّلوا متونها ، فأعاد المتون المحوّل ، وعزّف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية » .

ويذكر له المقرئ من شيوخه في الأندلس : ابن حبيش ، وابن حوط الله ، وأبا الربيع الكلاعي .

ثم لا تنس ولايته القضاء مرتين بدانية من قبل ، ولها ما لها . فهذا كله ، على الرغم مما قيل فيه من تجريح ، لا يسقط الرجل ، إذ هو لم يبلغ مبلغ المجرّحين إلا بعد أن عدّ في زُمره المحدثين . وقَلَّ مُحَدِّثٌ لم تُعدَّ عليه سَقَطَاتُهُ إلى جانب حسناته .

(خ)

وقد عرفنا الملك «الكامل» ذكياً فطنا يُحب العلماء والأماثل ويُلقي عليهم المشكلات ، ويتكلم على صحيح مسلم .

وزيد ابن مسعود الأندلسي الغرناطي في معجمه : «كان الكامل محبا للحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف» .

ويحكى أن أباه العادل استجاز له «السلفي» قبل موت «السلفي» بأيام .

ويقول الحافظ المنذرى عنه : «وكان معظماً للسنة النبوية وأهلها راغبا في نشرها والتمسك بها ، مؤثرا الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضرا وسفرا» .

وهذا أبو الخطاب محدث ، له سماع وتحديث أثار عليه المنافسين ، فأخذوا عليه ، وأثبتوا له ، ثم هو حافظ لصحيح «مسلم» كما يدعى .

فاجتمع الرجال - الكامل وابن دحية - على مؤلفة . ومن قبل تولى أبو الخطاب الكامل مؤدبا . وما يدرينا ، فلقد يكون هو الذي غرس في نفسه هذا الميل ، أو قل : لقد أعدى ميل ميلاً ، فنشأ الكامل على سنة شيخه ، وطبع بطابعه الغالب عليه ، فنشأ المشغول بالحديث ، المعنى بأهله . ثم لقد كان الكامل لأبي الخطاب مجللاً ، رعى له تأديبه ، وحفظ له حق المتعلم للمعلم .

يقول ابن النجار : «وكان الكامل يعظّمه ويحترمه ويعتقد فيه ، ويتبرك به ، حتى سمعت أنه كان يسوّى له المداس إذا قام» .

إذا فإلى من يكل «الكامل» بهذه المدرسة إذا لم يؤلّها أبا الخطاب ، حتى نراه يجعلها إراثاً في آله ، يوليها من بعده أخاه أبا عثمان بن دحية ، ثم ابنه شرف الدين بن أبي الخطاب ، بعد أن وليها المنذرى عبد العظيم فترة .

ويحدث المؤرخون عن تغير « الكامل » عليه ، وعزله إياه عن دار الحديث ، فيقولون : « إن « الكامل » بلغه أن « ابن دحية » غير ثقة فيما يحدث به ، فأمره أن يعلق شيئاً على كتاب « الشهاب » . فعلق كتاباً تكلم فيه عنه أحاديثه وأسانيده ، فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع شيء من ذلك الكتاب فعلق لي مثله . ففعل . فجاءت في الكتاب مناقضة للأول . فعرف السلطان صحة ما قيل عنه ، وعزله من دار الحديث ، وولى أخاه أبا عمر وعثمان .

غير أن ابن حجر يعقب ويقول : « وقيل إنما عزله ، لأنه حصل له تغير ومبادئ اختلاط » .

ويكاد يكون ما عقب به « ابن حجر » أولى ، فلقد كان طول المصاحبة كفيلاً بأن يتعرف « الكامل » هذا المطعن في أستاذه ، والألسنة من حوله ، ما تقرُّ في أفواهها ، تجريحاً للشيخ بهذا وغيره .

إذا فابن دحية ترك المدرسة ، ليعتزل الحياة العلمية ، حين بات لاغناء عنده ولا انتفاع فيه . وقد أقعده السن . والمؤرخون يسكتون فلا يذكرون متى كان عزل هذا بهذه ، وإن كانوا يشيرون إلى أن ذلك لم يكن قبل موت ابن دحية بكثير .

ولم نعرف « أبا عمرو » انتفع بها كثيراً ، فقد مات بعد أخيه بعام أي سنة ٤٦٣ هـ . ثم آلت بعد فترة إلى « شرف الدين بن أبي الخطاب » .

كل ذلك في حياة « الكامل » . ولو أن أبا الخطاب صُرف منها مجرداً مطعوناً ، ما التفت « الكامل » لأخيه أو لابنه بمنحهما رياستها ، وما نظنهما بلغا مبلغه سماعاً ودراية .

(ض)

حظه من اللغة والأدب :

لعل «العهرى» في «مسالكه» خير من وقي «ابن دحية» وصفاً حين يقول: «وقف للأطلاع على كل ثنية ، وهتف للاستطلاع بكل قضية ، وقاد نافر اللغة حتى جعل الغريب قريبا ، والحوشى ربيبا ، وأتى بها إلى الحاضرة قسرا من باديتها ، وقهرا لها في تأديتها ، فعادت إلى الحسنى ورق كلامها ، ودق حتى خفي للمأمها ، وله رسائل حوشية كتبها لتدل على غزارة مادته ، وإنارة جادته ، وقد أضربت عن ذكرها صفحا ، ولم أسمع لها صدحا ، لتقل وطأتها على الأسماع ، وشدة منافتها للطباع ، كأنها كلام النائم ، وتقيق الضفادع في الليالي العواتم ؛ تظن أنها ليست مركبة من الحروف ، ولا دالة على معنى معروف ، على أن له في أحرما يخف ، ولكنه مما لا يشف ، ولا يندى ورقه ولا يرق ، فلذلك أيضا ألغيتها ، وأعرضت عنها فأردتها ولا ابتغيتها .»

ويتلوه الغبريني فيقول: «وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حوشى اللغة عنده مستعملا غالبا عليه . ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيا إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظة من مستعملها . وكان قصده - والله أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره من الناس ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب ، وأنفردوا بالطريق الآخر ، لأنهم انفردوا به واشتهروا فيه ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب بن دحية الكلبي .»

ويقول المقرئ: «له رسائل ومخاطبات ، كلها مغلقات مقفلات ، وكان - رحمه الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يميزه أو غير ذلك يكتب: ابن دحية ، ودحية معاً ، المتشبه به جبريل وجبرائيل ، ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة في جبريل .»

(ظ)

وإنك لتقرأ لابن دحية في ثنايا كتابه «المطرب» حديثاً سهلاً تكاد تنفي به ما يلصقه به واصفوه بالإغراب . كما تقرأ له في «النبراس» وينقله عنه المقرئ في «النفح» فيقول: «وما أحسن قول أبي الخطاب بن دحية الحافظ» ثم يسوق ما اقتبس، وهو: «وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان، وقاسيت من الغربية أصناف الألوان، ومررت على مدائن كبرى أنوشروان، وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمر سلمان، وأعملت منها السير والإغذاذ، إلى مدينة بغداد .

فهذا وغيره يدل على سهولة وخفة، ما أحق صاحبهما بشيء من الإنصاف . ولكنه هنا مؤلف يسرد، لا كاتباً ينثر . وفرق بين صناعة وصناعة . ولقد قرأت له سهلاً، فما أحوجك إلى أن تقع على صعبه :

ذكروا أنه كان له خديم يخدمه، واحتاج الوالى إلى تجهيز قطع في البحر يبعث بها للمغرب، فأخذ خديمه في جملة الغزاة . فكتب لأبي علي بن يرمور والى بجاية، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة - وكان ابن دحية في ظله - يئبه على خديمه ليسرجه :

«الشيخ الفقيه الأديب الحجاج المرماس أبو فلان، بحمظ الله قعبان شفتوته . هذا الغطريس في اليم أخذ رجلاً لا يملك حدر فوتا، فيرى الزبرقان فيخاله حواري، ويرى الجعل فيحسبه زعبجا . وله قُرحة أمحشت من الحر، وتعطل كبرها . فأبعث إلى هذا العثري من يخضد شوكته . والسلام» .

(ع)

ويقال إنه لما وصلت هذه أبا علي بن يرمور ، لم يفهم لغتها ، فاستحضر
كُتُب اللغة وغيرها ليفهم غريبها ، فلم تتضح له إلا بعد أيام ، بعد أن سافرت
الأجفان .

هذا مثل له نفقد أشباهه ، ولكنه وحده يقوم دليلا على تكلفه الإغراب
على سماجة . ولعله فيه يقصد إلى المعاياة والتظرف ، ولا سيما والمكتوب إليه
في هذا الشأن - كما تصفه المراجع - متحذلق ، فلم لا يُثقل عليه أبو الخطاب
ويجلب إليه من « هجره » ويحمل إليه من بضاعته . وما نظن مثل هذا يقوم دليلا
على ظلم الرجل ، وغيره كثير ينصفه .

يبقى له بعد صناعة الثر قرص الشعر ، وصف وجدناه له على لسان بعض من
أرخوا له . وما ذكروا له ديوانا مجموعا أو شبه مجموع . وإن كانوا قد أوردوا له
مقطوعة أو اثنتين ، وثمت أبيات متفرقة ذكرت ! في ثنايا ما ألف وبقى لنا .

قال الغبريني ونقل عنه المقرئ : « ومن شعر أبي الخطاب ما وقعت عليه
في ورقة بخط بعض المشاركة ونصه : قال الحسن بن أحمد بن عبد الرحيم
البيساني : كتب إلى الفقيه الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية ، وأجازني الرواية
عنه وشافهني بالإجازة ، قال : كتب إلى السلطان الملك الكامل أبي المعالي محمد بن
أبي بكر بن أيوب هذه القصيدة :

مالي أسائل برقَ بارقَ عنكم	من بعد ما بعُدت ديارى منكم
وبمُنحنى الأضلاع بل وادى الغضا	من مُهجتي ياراحلين نزلتم
فمحلّكم قلبي وأنتم بالحشا	لا بالعقيق ولا برامة أتم
وأنا المُقسِم على الوفاء بعهدكم	يا مالِكين وفيتم أو خُنتم

أَظَنُّنْتُمْ أَنِّي سَلَوْتُ وَأَنْبَى
هِيَهَاتَ هَلْ يَسْلُو بِذِكْرِ مَالِكٍ
أَمَنَازِلَ الْأَحْبَابِ أَيْنَ أَحَبَّتِي
وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِرَبِيعِ عَزَّةٍ مُنْشِدًا
نَزَلُوا الْحَطِيمَ وَمَاءَ زَمْزَمٍ أوردوا
وَسَرَوْا وَقَدْ أُسْرُوا الْفَزَادَ وَحَرَمُوا
نَادَيْتُهُمْ وَهُمْ الْمُنَى بِنَمِيٍّ وَقَدْ
لَمْ تَسْكُنُوا الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَإِنَّمَا
هَمُّ فِي السَّوَادِ وَفِي السُّوَيْدَا خَيْمُوا
وَهُمُ الَّذِينَ إِذَا سُئِلْتُ مَنْ الَّذِي
أَنَا بَاخِعٌ نَفْسِي عَلَى آثَارِهِمْ
أَحِبَابِنَا طَالَ الْمَطَالَ بِوَعْدِكُمْ
عُودُوا يَعُودُ اللَّيْلُ صَبِيحًا مُسْفِرًا
وَالذَّنْبُ ذَنْبِي فِي الْهُوَى وَخَطِيئَتِي
حَكَمْتُمْ فِي مُهْجَتِي فَحَكَمْتُمْ
وَرَحَلْتُمْ بِالْقَلْبِ يَوْمَ رَحَلْتُمْ
وَلَقَدْ كَتَمْتُ هَوَاكُمْ حَتَّى وَشَيْ
وَالسُّقْمُ يُفْصَحُ بِالصَّبَابَةِ وَالْأَسَى
حَاشَاكُمْ مِنْ أَنْ تَجُورُوا فِي الْهُوَى
وَالْعَدْلُ بِالْمَلِكِ الْهَمَامِ مُحَمَّدٍ
عَزُّ الْمُلُوكِ الْكَامِلِ الشَّرْفِ الَّذِي

خُنْتُ الْعُهُودَ نُفِخْتُمْ وَغَدَرْتُمْ
مِنْ حُبِّكُمْ مَنْ لِلْغَرَامِ مُتِيمٌ
فَهُمْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ الْأَنْجَمُ
يَارْبِعِ أَيْنَ تُرَى الْأَجِيَّةَ يَمُمُوا
نَعِمَ الْحَطِيمُ بِهِمْ وَرَقَّتْ زَمْزَمُ
طَيْبَ الْهُجُوعِ عَلَى لَمَّا أَحْرَمُوا
ضَرَبُوا بِهَا حُرَّ الْقَبَابِ وَخَيْمُوا
حَرَمَ الْفَزَادِ الْمُسْتَهَامِ سَكْتُمْ
مَا أَعْرَقُوا مَا أَيْمَنُوا مَا أَشَامُوا
تَهَوَّاهُمْ قَلْتُ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
أَسْفًا فَلَا خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ
لِي بِالْوَصَالِ وَطَالَ لَيْلِي فِيكُمْ
وَالصَّبْحُ بَعْدَكُمْ بِهَيْمٍ مُظْلَمٍ
مِنْ دُونِكُمْ وَأَنَا الْمُسَىءُ الْمُجْرَمُ
فِيهَا بِمَا شَاءَ الْغَرَامِ وَشَنَنْتُمْ
وَضَعَنْتُمْ بِالصَّبْرِ يَوْمَ ضَعَنْتُمْ
سُقِمِي بِذَلِكَ وَدَمَعُ عَيْنِي الْمُلْزَمِ
وَالدَّمَعُ يَكْتُبُ مَا الْمَعْنَى يَكْتُمُ
وَنَعَمْ ظَلَمْتُمْ بِالْبِعَادِ وَجُرْتُمْ
بَادِيَ الْمَنَارِ لِكُلِّ مَنْ يَنْظُمُ
لِعَلَّانِهِ السَّبْعُ الْكَوَاكِبُ تَخْدُمُ

(ب*)

فالمشترى كالمشترى لسعوده
والقوسُ يرمى عن إرادة عزمه
فدعِ التخرُّسُ يا منجمٌ وأتند
ما كوكبُ المصباحِ ذو التُّربِ الذي
رفعت له الأملاك منه سبجية
لما اغتدى في الجند يخدم سابعاً
هذا الصحيح من المقالات التي
لدوى النهى والفهم سرِّ حكومة
واقصد مرادك حيث صرت مظفراً
وليهنك الشهرُ السعيدُ تصومه
فلأنت في الدنيا كائلةٌ قدره
أثنى عليك لأنَّ شكرك واجبٌ
وكذا الأيادي البيضُ تُسب نواها
ولي السَّواري في علاك مدايحاً
فبقيت ما بقيت حمامةً أيبكة
تحمي فلا متهمٌم يسطو ولا

يُسمى ويصبح حيث أمَّ يؤمُّ
غرضُ المقاصد والمقادر أسهم
فالحكم عندي غير ما قد تحكم
في القرب من بعد الغروب يُعتم
ملك السماك الرمح وهو محرم
بهرام سياف النجوم الضيغم
فيها بمكنون الغيوم يرجم
قد حار فيها كاهنٌ ومنجمٌ
فالله يكلاء الكواكب قُوم
وتفوز فيه بالثواب وتغنم
قدراً فقدرُك في الملوك معظم
إذ أنت في الخلق المغيُّث المنعم
تسرى كما يسرى السحابُ المسجم
كالشهب تُجبد في البلاد وتتهم
من فوق غصن يانج تترجم
متحرمٌ يسكو ولا متظلمٌ

ورأيت نقلها هنا كاملة لأجمع بين يديك جملةً صالحة للحكم على « ابن دحية »
شاعراً . والقصيدة كما ترى في الكامل سلطانا ، أى بعد عام ٦١٦ هـ . وكان ابن
دحية عندها شيخاً من الشيوخ قد أشرف على السبعين أو جاوزها .

ويقولون : إن السلطان أجابه بنثر ونظم . وكان من نثره إليه :

« الحمد لله وتلى الحمد . وقف ولده على الأبيات التي حَسُنَ شعرها ، وصفا دُرَّها .
وليس من البديع أن يقذف البحر دُرًّا ، أو ينظم الخليل شعرا . وقد أخذت
الورقة لأنتزه في معانيها ، وأستفيد بما أودعه فيها . والله تعالى لا يُحِلِّينا من فوائد
فكرته ، وصالح أديعته . والسلام » .

فهذا كتاب سلطاني ينطق بالبربه ، ضُمَّه إلى ما قيل قبلُ عن رعاية الكامل
لأبي الخطاب .

وبعد هذا النثر من كتاب «الكامل» تضطرب المراجع في ذكر أبيات عينية ،
يَقْتطع المقرئ منها طائفةً ويدعيها للكامل ، تَمَّةً لخطابه إلى أبي الخطاب . ثم يذكر
بعدها طائفة أخرى من البحر والروى ، يدعيها لابن دحية رداً على «الكامل» .
ويضمُّها «الغبريني» بعضها إلى بعض ويجعلها كلها لابن دحية بجيب بها «الكامل» .
ويروى «ابن دحية» كثرةً من هذه الأبيات في كتابه المطرب (ص ١٨٤ -
١٨٥) ويمهد لها بقوله : «ولبعض أهل العصر في قصيد فريد يمدح فيها مولانا
السلطان الملك الكامل على ملوك العصر ، أيده الله بالنصر» .

وما نظن أن «أبا الخطاب بن دحية» أراد نفسه تليحاً ، فما عودنا هذا فيما
يكتب ، وهو الحريص على ذكر لقبه «ذو النسيين» مع كل مقول له . ولقد
اجتزأت بذكر «ابن دحية» لها في هذا الكتاب ، والعود إليها من التكرار .

وتمَّ أبيات أخرى لابن دحية ختم بها «مطربه» يخاطب بها «الكامل» تراها
في (ص ٢٤٢-٢٤٣) على روى الدال وفيها يقول :

فهاك ما شئت من نظم له سبق كالدُرِّ ففصل فامتازت فرائده

(د*)

فمن هذه الميمية ثم الدالية وكل العينية - إن صحت أمثالها - نرى أن ابن دحية على حظ من قول الشعر ، لا أظنه يرفعه إلى أن يعدّ من رجاله ؛ إلا أن تقصد أنه من قائله .

ولعلنا إلى رجعة عن هذا الحكم، إن طالعنا له الأيام بجديد فيه خاطر وفكرة، وإلا فنحن عند ما ذهبنا إليه ، والشئ يدلّ قليله على كثيره .

مؤلفاته :

ولقد مضى «ابن دحية» بعد أن نيف على الثمانين، جواباً للآفاق، قطع الدنيا العربية من مغربها إلى مشرقها ، وجيهاً حيث حلّ ، بعد أن خلف لنا مؤلفات بقي أكثرها بأسمائها ، وسلمت قلتها من الضياع ، وهي بعهد «المطرب» الذي سنحدث إليك عنه بآخر ، مرتبة على حروف الهجاء :

١ - الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات - بهذا الاسم ذكره المقرئ. واقتصر «حاجي خليفة» في «كشف الظنون» على ذكر الشق الأول من اسم الكتاب. ثم ذكره «اسماعيل عارف باشا» «في هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» كاملاً كما ذكره المقرئ . ويذكره ناسخ «الابتهاج» في ثبت جعله نحر المخطوط ويزيد: «في شرف أعضاء النبي صاحب المعجزات» . ويضيف «بروكلمان» أن هناك بالجزائر منه نسخة برقم (١٦٧٩) ويجعل اسم الكتاب «الآيات البيئات في خصائص أعضاء رسول الله» .

٢ - الابتهاج في المعراج - كذا في ثبت كتب «ابن دحية» التي أثبتها له كاتب «نهاية السؤل» في صفحة أخيرة مستقلة. وقد ذكره السخاوى في كتابه «الإعلان بالتوبيخ» (ص ٩١) فقال: «ولأبي الخطاب بن دحية وغيره: المعراج» .

٣ - استيفاء المطلوب في تدبير الحروب - لم يذكره إلا صاحب الثبت المتقدم في آخر « نهاية السؤل » .

٤ - الإعلام الميين في المفاضلة بين أهل صفين - كذا ذكره المقرئ .
وسماه الذهبي في « تذكرة الحفاظ » و « سير النبلاء » . وابن الأبار في « التكملة » : « النص الميين ... » . وذكره صاحب الثبت باسم « التبيين في التفاضل بين أهلى صفين » .
ومنه نسخة بمكتبة الأسكوريال برقم (١٦٩٣) تحمل هذا الاسم : « كتاب إعلام النصر الميين في المفاضلة بين أهلى صفين » . وفي أولها : « أما بعد حمد الله مقدر الحياة والاجال . فيألك سألتنى ... عن أخبار حرب صفين ، وما جرى فيه بين المسلمين المختلفين ، وحصل (وفضل) على التعيين . فوجب أن أئين ذلك أحسن تبيين : حدثنا غير واحد من شيوخنا » . ثم استطرذ يذكرهم شيخا شيخا ، حتى انتهى إلى أبى غنيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق .

٥ - أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين المشرقين - كذا ذكره صاحب الثبت السالف .

٦ - تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم - مما ذكره صاحب الثبت أيضا .

٧ - التحقيق في مناقب أبى بكر الصديق - ذكره اسماعيل عارف باشا في « هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين » عند ذكر ترجمة « ابن دحية » .

٨ - تعليق على شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية للقضاعى أبى عبد الله بن سلامة المتوفى سنة (٤٥٤ هـ) ذكره صاحب « هدية العارفين » .

٩ - تنبيه البصائر في أسماء أم الجبائر - ذكره حاجي خليفة وقال: « وهو مختصر على الحروف. أوله الحمد لله الذي رضى دين الإسلام لعباده المسلمين » وذكر « بروكلمان » أن منه نسخة بمكتبة « ليدن » .

١٠ - التنوير في مولد السراج المنير. وقد مر بك مادعاه إليه. ويقول حاجي خليفة: « ألفه بإربل سنة ٦٠٤ هـ وهو متوجه إلى خراسان، باتمس الملك المعظم الأيوبي. وقد قرأه عليه بنفسه وأجازه بألف دينار غير ما أجرى عليه مدة إقامته » .

وفي المكتبة الأهلية بباريس منه نسختان برقى (١٤٧٦، ٣١٤١) .
ويذكر الأستاذ العزاوي؛ أنه كان عنده منه نسخة ولكنه أضلها .

١١ - سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب - ذكره ابن دحية في النبراس (ص ١٩) وقال: « وباقى هذا النسب ذكرته في كتاب «سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب» .

١٢ - شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم - وقد ذكره المقرئ أيضا .

١٣ - الصارم الهندى فى الرد على الكندى - وكان حضره هو والتاج الكندى عند الوزير ابن شكر فتناظرا . وأورد ابن دحية حديث الشفاعة . فلما وصل إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام « إنما كنت خليلاً من وراء وراء » فتح «ابن دحية» الهمزتين . فقال الكندى : « وراء وراء ، بضم الهمزتين » . فعسر ذلك على «ابن دحية» ، فصنّف فى هذه المسألة هذا الكتاب « الصارم » . وبلغ ذلك الكندىّ فعمل مصنفًا سماه « نتف اللحية من ابن دحية » . ذكر ذلك غير واحد ممن ترجموا لأبى الخطاب ونقله حاجي خليفة .

(ز*)

ويذهب العباد الحنبلي إلى أن تأليفه للكتاب كان لتعريض الكندي بنسب ابن دحية ورده عليه .

١٤ - عصمة الأنبياء - مما ذكره صاحب الثبت أيضا .

١٥ - العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور - أشار اليه ابن دحية في المطرب (ص ٢٢٣) . ومن الكتاب مخطوطة بمكتبة الإمام يحيى باليمن رقمها (٢١٤) أدب ، قديمة الخط ، عدد أوراقها ٣٢٠ وهي ناقصة من آخرها ، وربما كان ما ينقصها ورقة أو نحوها . وقد صورتها بعثة مصر إلى اليمن على شريط ، محفوظ برقم (٢٩١) . والمخطوطة فيما تبدو ، قد ذكرت فيها الشهور مرتبة ، وذكر ما يتصل بكل شهر من فضائل ، ولغة ونحو وغريب . وقد نقل عنه في كتابه « النبراس » في أكثر من موضع فقال (ص ١٠٤) : « وقد تكلمنا على هذه اللفظة ، أعني الدجال ، في المجلد السادس من كتاب « العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور » وذكرنا فيه عشرة أقوال » . ثم قال في (ص ١٢٣) : « وذكرنا اشتقاق قرمط ونكًا من أخباره المسترذلة أو آثاره القبيحة المستفحلة . في فضل المحرم في كتاب العلم المشهور » . ثم قال في (ص ١٦٩) : « وقد تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم . وخرجت طرقة في كتاب العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم » .

١٦ - مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين - ذكره صاحب الثبت .

وزاد « بروكلمان » أن منه نسخة بليدن برقم (٩٠٣) .

(ح*)

١٧ - المستوفى من أسماء المصطفى - وقد ذكر حاجي خليفة أن القاضي «ناصر الدين» لخصه في كراسة . وقال : « ذكره السخاوى فى القول البديع » .

وأشار إليه السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ (ص ٩٠) .

وسماه صاحب الثبوت « المستوفى فى ... » .

١٨ - مصنف فى رجال الحديث - ذكره الغبريني فقال : « رايت له تصنيفا

فى رجال الحديث لا بأس به » .

١٩ - النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس - وقد قام على تحقيقه ونشره الأستاذ

عباس العزاوى . وخرج به على الناس (سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م) . وقدم له ببحث طريف جامع عن الكتاب ومؤلفه ، أفدت منه كثيرا .

٢٠ - نهاية السؤل فى خصائص الرسول - ومنه مخطوطة بدارالكتب المصرية

رقمها (٦١٢ حديث) . بخط قديم حسن ، فى ١١٣ ورقة . قال فى أولها « الحمد لله الذى تنزهت عن درك الإحاطة ذاته ... وبعد فى ذكرك فى هذا الكتاب بإذن الله الذى لا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يلفظ بكلمة إلا بإذنه وحكمه ، مايسرلى حفظه وعلمه ، وقدرلى شرحه وفهمه ، من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لم يجمع قبل فى مخلوق » .

٢١ - وهج الجمر فى تحريم الجمر - ذكره ابن دحية مرة فى « المطرب » عند الحديث

عن « ابن زرقون » (ص ٢١٩) فقال : « وقد تكلمنا على نسبه ولقبه فى كتابنا المسمى بوهج الجمر فى تحريم الجمر » . ثم أحرى (ص ٢٢١) حين ساق أبياتا على روى الميم لابن زرقون وقال : « وقد تكلمنا على هذه الأشعار ومن انتقدها عليه

من العلماء الكبار، واعتذرنا عنها بأبلغ الاعتذار، وذلك في كتاب «وهج الجمر في تحريم الجمر». وكان الكتاب كما يدل على العنوان، وتطالعك عباراته، مأخذ على من ذكر الجمر والعيب من القائلين فيها. وهو في خلال هذا وذلك يترجم للناس، ويعرض لشعر الشعراء منهم.

٢٢ - خطب - ذكرها صاحب الثبت فقال: «وخطب بليغة وغير ذلك».

فأنت ترى أن كثرتها لرجل عاش للحديث حقاً برئ - من الزلات أو لم يبرأ - فتن بصاحبه محمد صلى الله عليه وسلم نخسه من بين مؤلفاته بالنصف، أو بما يربى عليه قليلاً. وإن كانت هذه الكتب لم تقع لنا إلا بأسمائها، فبلغ القول فيها أنها نفضة مؤمن. أما ما وراء ذلك من علم يفاد، أو رأى ينتفع به، فرهن بالعثور عليها. ثم هو بعد ذلك مؤرخ، يدلنا في كتابه «النبراس» على أنه مقل والمؤرخون مكثرون. يقتطف رؤوس الحوادث اقتطافاً، ويغلب عليه الحديث فيسند أخباره، شأن من سبقوه وكان عليهم مثل عدله مزيجاً من الفنين.

وهو بعد هذين بين اللغة والأدب، في المطرب، ووهج الجمر، والعلم المشهور. وللحديث أيضاً منها جميعاً نصيب.

فأبو الخطاب حين ألف صور نفسه. وفاض عن زاد مذخور. ولم يقم نفسه في غير ما هو له؛ وما أظنه عني نفسه عناء المؤلفين يستقصون لما يجمعون، وينقبون عما يلمون به، بل كأنني به أملي ما وعى، وما أفاده مما إليه سعى. وقد يكون كتابه المطرب خير ما ألف، وأفسح مجالاً لمتحدث.

٢٣ - المطرب :

وكتاب المطرب صورة صادقة لهذا، فكثرت تحديث ومُشافهة. فهو لا يقنع إلا أن يسوق السند موصولاً، تدفعه إلى ذلك إما صناعة غالبية، أو تقليد لما سبق إليه من

كتب المشاركة في الأدب والتاريخ . وكان ذلك نهجا غالبا عليهم ، لم يبرأ منه إلى عصر ابن دحية - فيما نظن - أحد .

يحدثنا ابن دحية في «المطرب» عن «الرمادى» فيقول : « أنشدني غير واحد من شيوخي رحمهم الله ، منهم الشيخ الفقيه الأجل قاضي الجماعة الأجل أبو الحسن علي بن عبد الرحمن لفظا بمنزله بمدينة تلمسان ، قال : أنشدنا الفقيه الإمام العالم أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن خلف بن موسى بن أبي تليد الشاطبي ، قال : أنشدنا الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، قال : أنشدنا مقدم الشعراء أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى لنفسه ، وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة » . ثم يسوق له بعد هذا السند الطويل أبياتا ستة يعقب عليها بكلمة قصيرة لا تتجاوز السطرين .

وفي هذا السنن يجرى ابن دحية في كتابه ، يُثقله بالأسانيد التي لو جرده منها لعاد إلى النصف أو نقص قليلا .

ثم هو لم يعمد فيه إلى تبويب وتنسيق ، بل هو ، كما وصفه في مقدمته ، قد استرسل فيه مع الخاطر ، على ما يوجد به ويسمح ، ويعين له ويسخ .

وهذا أيضا من نهج المحدثين المأمليين ، لا المؤلفين المبرزين .

فالكتاب كما ترى من حيث النهج حديثي ؛ ومن حيث الموضوع أدبي ، يضم إلى ذلك طرفا من أخبار تاريخية . ثم هو لم يُخله - كما يقول - من مشكلى على الغريب والعربية .

وقد كتبه ابن دحية استجابة لرغبة سلطانية ، لسلطان مصر حينذاك «الكامل» ، كما أشار في تصديره . وقد سبق أن «الكامل» ولي ملك مصر عام ٦١٦ هـ . وإن صح

أنه طلبه عاجلاً مع توليه، فالكتاب وليد تلك الأعوام اللاحقة لا يعدوها كثيراً؛ لأنه سهل المثال على رجلٍ يقول: «إنه يملئ من حفظ، ويحدث عن سماع، ويروى عن مشاهدة». وغير بعيد - وهو يُعدُّ لمثل هذا من نشأته - أن يكون له تدوين أفاد منه حين ألف؛ لكثرة ما ورد في الكتاب من سماع طويل ثقيل على الذاكرة. وقد لا يكون، فهو يحدث أختبر في مثلها فروى كتباً بأسانيدها.

ولا أدري أكان قصره الكتاب على كل أندلسي وآخر مغربي شيئاً أرادته منه السلطان أم أرادته هو للسلطان. فإن كانت الأولى؛ وقد قالها هو؛ فما من شك في أنه مثيرها والموحى بها والمشوق إليها؛ ليعرف بفضل آله وذويه؛ ويدفع نقصاً لمسئله؛ ويرفع من هوان أحسنه؛ وفي الكتاب أكثر من إشارة، تُعبر في صريح عبارة، عن علم الرجل بأهتضام المشاركة للغاربة، وإنزالهم في الأدب منزلاً غير لائق، والغضب من شأنهم الفائق.

وهو في ذلك: إما نازعٌ منزوعٌ غيره من مغاربة سبقوه؛ أو مصدر عن خاطرٍ يحذوه. فهو حين يُطرى «ابن زيدون» مقتبس قول «الفتح بن خاقان» غير مُشير إلى ذلك الاقتباس. وكأنَّ وحدة الخاطر أنسته ما للخابر؛ فيقول والقول للفتح: «فإن قصائده - معني ابن زيدون - التي ضربت في الإبداع بسهم؛ وطلعت في كل خاطر ووهم؛ وتزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم».

وإما نافث عن صدر مصدر ملىء غيظاً وحنقاً، فأراد أن يُنصف قومه في مؤلف أرادته لذلك، حين خصهم به دون غيرهم. فكيف به لا يقتنص الفرصة حين يجسد مجال المفاضلة يعطيه، وإحسان ذويه مؤاتيه. أستمع إليه يعقب على شعر الغزال (ص ١٤٥): «وهذا الشعر لوروى لعمر بن أبي ربيعة، أو لبشار

ابن بُرد ، أو العباس بن الأحنف ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المُحسِنين - يريد شعراء المشرق - لا سُنُغِرب له . وإنما أوجب ذلك أن يكون ذكره منسياً ، أن كان أندلسياً . وإلا فإله أنحمل ، وما حقُّ مثله أن يُهمل .

والرجل « وطني » بما في معنى هذه الكلمة من معانيها الطيبة . ما نظنُّه رُزق خيراً مما رُزقه في المشرق ، ولا سيما في مصر . وما خلت جوانحه من حنين باقٍ إلى الأندلس ، يروى الفضل لغيره من بني وطنه فيفخر ، وكأنَّ نفسه يذكر ، فيقول عن الغزال أيضاً : « وأقام الغزال في رحلته تلك مدة يُجول في ديار المشرق ، وما انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها ، وطريقة يبدعها . ثم إنه رجع إلى نفسه وحق إلى مسقط رأسه وانصرف إلى الأندلس » .

وما أصرحه حين يقول (ص ١٤٥) : « ألا نظروا - يعني المشاركة - إلى الإحسان بعين الاستحسان ، وأقصروا عن استهجان الكريم الهجان ، ولم يُجرِّهم الإزراء بالمكان عن حد الإمكان . لئن أرهفت بصائرهم البصرة ، وأرقتها الرقنان ، فقد درجنا نحن بجيث مرج البحرين يلتقيان ، فإن منهما مخرج اللؤلؤ والمرجان » .

وما أذكره بأهله حين يقول (ص ٢٠٤) : « وهي زبدة الشعر وخلاصته - يريد الموشحات - وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق » .

هذا هو قلب ابن دحية الخالص لوطنه ، وهو الذي حرَّكه من غير شك لأن يشير في مقدمته في تصريح أو غير تصريح ، فنرى أن « الكامل » هو الأمر أو الطالب ، وأن ابن دحية بعدها هو المحيَّب إلى رغبة السلطان على شرط مشروط ، وهو أن يكون الكتاب خالصاً لكل أندلسي ومغربي .

وما أمر السلطان ولا رغب، ولكنه ابن دحية سفير الغرب إلى الشرق، نشأ وفي نفسه أن المشاركة لأهله ظالمون، وكأنه لقي في تطوافه ما زاده دليلاً وملاًه يقيناً. وهو الوطني الذي لم ينس وطناً بوطن، ولا أهلاً بأهل، مع سابغ نعمة، وموفور رعاية. فشمّر يؤلف هذا الكتاب. وفي ظني أنه كان لهذا الغرض الوطني النبيل في نفسه. ولا يدفع هذا الظن أن الرجل ذو علم أندلسي مغربي، فهو يعرف من بجره. وأن في تكليفه بمثله غير عناء وإعناء: ولكنها محسون عاماً قضاها هناك: بل لأندلس والمغرب منها سنو صباه وطفولته، ومثلها إلا قليلاً قضاها بالمشرق، مع كمال عقل وحسن استعداد؛ وقد عاشر هنا فأطال، ولقي العلماء وتحدث إليهم، وسمع فأكثر. فما أفاده هناك أفاد مثله هنا. ولكنه أراد النصفة فحققها بهذا الإيراد الخالص لأهله، وأكدها ثانياً بالمفاضلة يسوقها والرأي يدلى به.

هذا هو كتاب المطرب فيما أرى مؤلفه وضعه له. وما أعيب عليه ما أتمناه لكل موطن. وإنه لنهيج سليم إن حيط بالقصد، ولم يثرها شتاءً مفرقة.

وقد أخذ الرجل أخباراً من جمع لهم عن سابقين راوياً عن حفظ. أشار إليهم في الكثير وأغفل في القليل. وما هو بشائنه، فالعذر ملتمس، وما فاتت الإشارة إلا عبارات تدخل على محفوظ الإنسان فننضاف إليه، وكأنها منه حين تصدر عنه.

وقد جاء في كتابه بطائفة لا ينتظمها زمن، ولا تجمعها وحدة، حديثاً حرّختار، فيه تعريف بجديد، أو زيادة على قديم، أو اختيار من مطول، أو تطويل لمختصر، أو تدوين لمفقود، أو توثيق لموجود. وإن جاء بعضه حديثاً معاداً أو تكراراً،

(ن*)

فالأدب هذا أمره ، يقال هنا ليعاد هناك ، ويُفرد مرةً ليُجمع أخرى . وهو في كُناها
حلو مُستطاب ، سائغ غير مملول .

وقد نقل عنه المقرئ في أكثر من موضع ، كما نقل عنه السيوطي .

المخطوطة :

والكتاب في نسخة يتيمة . لانعرف غيرها إلى اليوم ، يحتفظ بها المتحف البريطاني
بلندن فيما يحتفظ به من مخطوطات عربية (برقم ٦٣١) ، انتهى منها كتابها حسن بن
محمد بن جعفر البغدادي يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين
وسمائة . أى بعد وفاة المؤلف بنحو من ستة عشر عاما . وعن هذه المخطوطة مصورة
دار الكتب المصرية التي نشرنا عنها الكتاب ، والأرقام التي في هامش المطبوعة
تذكر لك عدد لوحاتها ، واختلافها حين تتلف يُحدِّك باضطراب اللوحات في ذلك
المكان ، قبل أن تُسويها .

وقد كنت أشير على زميلٍ أن ندع هذه المصورة الوحيدة جانباً ، لأنها لم تُرزق
نُدًا . ثم أخذتُ برأيهما حين وجدتُ أن نصوصها المُستقاة ، من مراجع موجودة تكاد
تُغنى عن الأنداد ، وما بقى فالخطب في تصويبه يسير .

ولكن هذا وذلك لا يرزقنا اليقين بأن الكتاب سليم في جملته ، لم يُصَب بأقْطاع ،
أو تعرّض لمحنة من تلك المحن الكثيرة التي تُمنى بها المخطوطات .

ونكاد نشك أن المخطوطة تنقص شيئاً ، وتضطرب في شيء آخر . يقربنا من أولها
ما نرى المقرئ يذكر أنه نقله عن ابن دحية — ونظن أنه من المطرب — ثم لا نجد

فيه—أى فى المطرب—من ذلك حديثه عن أبى بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمى ؛ وهو ممن ذكرهم « ابن دحية » فى « المطرب » .

يقول المقرئ (٤ : ٣٠٦) : « وقال أبو الخطاب بن دحية : دخلت على الوزير الفقيه الأجل أبى بكر عبد الرحمن محمد بن مغاور السلمى . فوقع الكلام فى علوم لم تكن من جنس فنونه ؛ فقال بديها :

أيها العالم أدركنى سماحا فلهثلى يحق منك السماح
إن تخانى إذا نطقت عيا فبنانى إذا كتبت وقاح
أحرز الشأو فى نظام ونثر ثم أثنى وفى العنان جماح
فبهزل كما تأود غصن وبجد كما تهز الصفاح «

وقال : « دخلت عليه منزله بشاطبة فى اليوم الذى توفى فيه وهو يوجد بنفسه ؛ فأشد بديها :

أيها الواقف اعتبارا بقبرى استمع فيه قول عظمى الريم
أودعونى بطن الضريح وخافوا من ذنوب كاومها بأديمى
ودعونى بما كتبت رهينا غلق الرهن عند مولى كريم «

فهذا كله يكاد يكون متما لحديث ابن مغاور فى المطرب ، و يكاد يكون نقل المقرئ عنه ، ولكن حرفاً منه لم يرد فى مخطوطتنا .

وشىء ثانٍ إلا أنه أقطع فى الحجة ، فالمقرئ فيه جد صريح حين يقول (٦ : ٢٧) :

« وذكرها — أى مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى — ابن دحية « فى المطرب »
وقال : إنها أديبة شاعرة مشهورة . وكانت تعلم النساء الأدب ، وتمتشم لدينها
وفضلها . وعمرت عمرا طويلا . سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة .»

وما في المطرب شئ من هذا . وكان صاحبة الحديث سقطت منه بحديثها .
فهذا أو ذلك ، من النقص الذي فرضناه ، ثم تيقناه ثانيا فيما ساقه المقرئ
عن مريم بنت أبي يعقوب ، مصرّحا بأنه عن « المطرب » يدل على ما ذهبت به
الأيام من هذا الكتاب .

أما الاضطراب فدليله تجمله النسخة، وقد أشرنا إليه في ص (١٩٥) من الكتاب
عندما عادت المخطوطة لذكر « البتي » وكانت سبقت إلى ذلك (ص ١٢٤) .

اسم الكتاب :

ولاندري أسميته الكتاب من تسميته للأولف ؛ أو هي شئ غيرها . فقد
جعل « المطرب في أشعار أهل المغرب » ولم يكتبه كما صوره حاجي خليفة
« المطرب من ... » وما نظن هذا الأخير ابتدعها .

ونقف عند هاتين يثنى سوء الظن بالناسخ عن اعتماد ما كتب ويميل بنا الميل
إلى ما ذهب إليه حاجي خليفة، لأن كلام المؤلف في تصديره يكاد يمل في العنوان
« بمن » التي هي بالسياق أليق .

وفيا أنت بين سبيلين لاندري أيهما تأخذ ؛ إذا « ثبت نهاية السول » يطالعك
بغير هذا وذلك ؛ ويسمى الكتاب « المعرب في أشعار أهل المغرب » .

وتسكت المراجع جملة عن ذكر هذا الكتاب باسمه ، إلا « المقرئ »
و « السيوطي » فيذكرانه ولكنهما لا يزيدان عن تقديمه باسم « المطرب » . كلمة
واحدة لا يذكران معها سينا .

وقد أردناه كما أراده « حاجي خليفة ظنا منا بعثوره على منقولة نقل عنها ؛
ولأن سياق المؤلف في تصديره يعضده وأطرحنا ماتجمله النسخة ؛ لأن الناسخ - كما
قلنا - لم يجمعنا على الثقة به .

والنسخة بعد هذا ، وإن وضع خطها وجادت حروفها نوعاً ما ، لا تزكّي الكاتب ولا تسمه بفهم . وما أكثر ما حكى راسماً ؛ ونقل مصوراً . وهو على قرب عهده بالمؤلف ، يكتب اسمه فيخطيء ، فبجعله « عمر بن علي بن حسن » وسواء أكانت له أم لسابق سبقه ، فهي دالة عليه . وقد نُحَسِّنُ فعندنا مما يسبق به القلم ؛ وحسبه غيرهما مما في الكتاب من هنات (١) .

وبعد :

فها هو ذا المطرب منشورا ، أردنا به النفع ، وبذلنا فيه ما وسعنا من جهد ، وما هو إلا ركن أقيمناه ؛ فإن سلم على الزمن فحمدا ، وإن جدّ عليه جديد فما أكثرنا له حمداً والمرء قد يصيب وقد يخطئ ، والغرض أوسع من أن يحاط به ، والهدف أبعد على الرامين ، فلا أقل من كلمة مع التوفيق ، وإعذار على ما فات .

ولى زميلان نصبا معي وما قصّرا ، وكان للزميل الدكتور حامد عبد المجيد ، بعد جولاته الموفقة معنا في تحقيق النص وتحريره وتوجيهه ، جولة أخرى انفرد بها ، وهي إعداد الفهرس الشامل للكتاب ، وما هو بالجهد القليل .

ثم ما أظننا بما عملنا إلا أنصفنا أبا الخطاب فيما هدف إليه ، فقد ألف هذا الكتاب ليشيع بين الناس فيعرفوا لقومه ما عرف ، ويؤمنوا معه أنهم مجودون محسنون ، وأنهم جديرون بنظرة عادلة لا تغمطهم حقاً ، ولا تسلبهم فضلا .

(١) وانظر اللوحات اللاحقة .

(ص*)

وختاما

فيإلى أب النهضة الأدبية—الدكتور طه حسين — ومنه الرأي ، وعنه التوجيه ،
رذ عملنا ، بعد ما أسدى فيه ؛ وشجع عليه ، ليطمئن قلبه على تراث للعرب أثير
عنده ، يرجو بعنه ، ويبغى بته .

والله تعالى ولينا ووليه ، فيما أردناه وأراد . منه العون وإليه التوفيق ما

إبراهيم الابيارى

القاهرة ديسمبر سنة ١٩٥٤

المراجع

الذيل على الروضتين ، لأبي شامة أبي محمد
عبد الرحمن بن إسماعيل .

سير أعلام النبلاء ، للذهبي أبي عبد الله محمد
ابن أحمد .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن
العقاد الحنبلي عبد الحلي .

صلة الصلة ، لابن الزبير أبي جعفر أحمد .

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، للعبسي أبي
محمد محمود بن أحمد .

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة
السابعة ببجاية ، للغبريني أبي العباس أحمد
ابن محمد .

الفلاحة والمفاوكون ، لادبليج أحمد بن علي .
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،
لحاجي خليفة ابن عبد الله مصطفى .

لسان الميزان ، لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي .
مجلد المجمع العلمي العربي بدمشق (ج ١٩ : ٢٢١)
مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية
(ج ١ : ١٦١)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، لسبط بن
الجزري يوسف بن قير . أوغلي .

الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر
أبي عمر يوسف بن عبد الله .

الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني
أحمد بن علي .

الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوي
محمد بن عبد الرحمن .

البداية والنهاية ، لابن كثير اسماعيل بن عمر .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،
للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر .

تاريخ الأمم والملوك ، للطبري أبي جعفر محمد بن
جرير .

تذكرة الحفاظ ، للذهبي أبي عبد الله محمد بن
أحمد .

التكلمة لكتاب الصلة ، لابن الأبار أبي عبد الله
محمد بن عبد الله .

تهذيب التهذيب ، لابن حجر أحمد بن علي .
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،
للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر .

الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار) للقرنزي أحمد بن علي .

دول الإسلام ، للذهبي ، أبي عبد الله محمد بن أحمد .
ديران ابن عتير محمد بن نصر .

(د*)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن
تغري برد أبي المحاسن يوسف .

نفع الطيب من غصن الأندلس ابرطيب للقري،
أحمد بن محمد .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن
خلكان أحمد .

مسالك الابصار في أخبار ملوك الأمصار ،
للعمري أحمد بن يحيى .

معجم الأدباء (ارشاد الأريب الى معرفة
الأديب) لياقوت بن عبد الله الحموي .

مفرج الكروب في أخبار بين أيوب، لابن واصل
محمد بن سالم .

النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، لابن دحية .

المطرب في أشجار الهدى

المختوم

تصنيف الشيخ الإمام الفقيه الحديث
المتقن بحكم الرواة أبي الخطاب محمد بن
علي بن حسين المعروف بابن رجب

رضي الله عنه

انتقل إلى مدينة أروا

في سنة ١٠٠٠

الله تعالى

المختوم
الشيخ
أبي الخطاب
محمد بن
علي بن حسين
ابن رجب
أصل كتابه
الوادع
المختوم
الشيخ
محمد بن
علي بن حسين
ابن رجب

المختوم
الشيخ
محمد بن
علي بن حسين
ابن رجب